مساهمة المرأة في الأدب واللغة

د/ سهام مادن
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة الجزائر

لقد أثبتت المرأة جدارتها وكفاءتها في مجالات متعددة، وسنحاول في هذه المداخلة إن شاء الله أن نوضح أنّ بروز المرأة لم يكن في العصر الحديث فقط، بل قد برزت إلى جانب الرجل منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحالي حيث لم تترك مجالا إلا وتفوقت فيه.

سنتطرق إلى العناصر الآتية :

1 ـ مساهمة المرأة في المجال الأدبي :

انطلق الشعر مع العصر الجاهلي، ولا يقصد بالعصر الجاهلي كلّ الفترة التي سبقت العصر الإسلامي، بل هي فترة زمنية محدّدة بحوالي مائة وخمسين عاما قبل الإسلام، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى كما قال الجاحظ: « أمّا الشّعر (العربي) فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس ومهلهل ابن ربيعة فإذا استظهرنا الشّعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[1].

في فترة العصر الجاهلي برزت المرأة في المجال الشّعري، وكانت نسبة حضورها كبيرة، نذكر من هذه الأسماء ما يلي:

ـ على رأسهنّ الخنساء التي تميزت في غرض الرّثاء، ولها ديوان شعر في رثاء أخويها صخر ومعاوية، ويعتبر ديوانها مدونة العرب، فهو يعبّر عن عاطفة قوية صادقة متأججّة محترقة ألما وحزنا.

1 ـ الجاحظ، الحيوان، طبعة الحلبي، د ت، ج1، ص74.

- الخرنق أخت الشاعر طرفة بن العبد، لها ديوان طبع في بيروت عام 1897م.
- عمرة بنت الخنساء.
- ليلى الأخيلية (بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب من بني عامر بن صعصعة، شاعرة فصيحة ذكيّة جميلة اشتهرت بأخبارها العظيمة[1].
- امرأة المغيرة.
- أمّ غيلان بنت جرير[2].
- بنات ذي الأصبع العدواني[3].

وهنّ كثيرات برزن في أغراض متعدّدة، نحاول فيما يلي تحديد الخصائص المعنوية واللفظية لشعرهنّ.

1 - الخصائص المعنوية: كانت المعاني واضحة بسيطة لا تكليف فيها، لأنه عموما يمتاز الشاعر الجاهلي بصدقه في نقل أحاسيسه وتصوير بيئته.

امتاز شعرهنّ بالعفوية، والتأثّر بالبيئة ظاهر جلي في أشعارهنّ، وهو يدلّ على صدق المشاعر والأحاسيس، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أعيني جودا ولا تجمدا * * * ألا تبكيان لصخر النّدى

الخصائص اللفظية

ممّا يلاحظ أنّ الشّعر الجاهلي عامة كامل الصياغة، تراكيبه تامة عباراته عظيمة، فلا قصور ولا عجز، وهي تمثل رقيّا لغويّا، وامتازت القصائد بالطول مع الالتزام بالوزن والقافية، واستعمال المحسنات اللفظية والمعنوية وكل أنواع البيان.

أثبتت المرأة جدارتها في قول الشّعر في شتى أغراضه مستخدمة مختلف الوسائل الناجعة لترقية هذا النوع، وقد برزت المرأة في مجال النثر خاصة في الحكمة والأمثال، حيث كان يُضرب بهنّ المثل في الرأي السديد والقول الرفيع.

1 - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د.عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط3، ج1، ص165 - 166.
2 - المرجع السابق، ج1، ص165 - 166.
3 - ذو الإصبع العدواني، حرثان بن الحارث بن محرث، شاعر حكيم شجاع جاهلي، لقب بذي الإصبع لأن حية نهشته فقطعت إصبع رجله، وقيل: كانت له إصبع زائدة، يُعَدُّ من المعمرين، المرجع السابق، ج1، ص134.

وما أن بزغ الإسلام حتى ارتوت هذه الفئة من تعاليم الدين الإسلامي فزادت حكمة على حكمة وعظمة على عظمة في الشّعر والنثر، بل ظهرت أسماء كثيرة نذكر منها ما يلي:

- السيدة عائشة رضي الله عنها.
- أمّ سلمة رضي الله عنها.
- السيدة فاطمة رضي الله عنها.
- السيدة زينب رضي الله عنها.
- السيدة حفصة رضي الله عنها[1].
- السيدة الزرقاء[2] ...

بالإضافة إلى نساء أخريات أمثال: نائلة بنت الفرافصة[3] امرأة عروة بن الورد[4] والقائمة طويلة. من أهم مميّزات أدبهن التأثّر بالدين الإسلامي، فكان كلامهن حكمة وتربية سواء في النثر أو في الشّعر.

لقد أثبتت المرأة براعتها، فكانت بليغة حكيمة، ومن أمثلة ذلك نذكر ما رُوي عن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تقول: « مكارمُ الأخلاق عشرٌ تكونُ في العبد دون سيّده وفي الخامل دون المذكور، وفي المسُود دون السيّد: صدق الحديث، وأداء الأمانة، والصّدق والصّبر في البأس، والتذمّم للصّاحب، والتذمّم للجارّ، والإعطاء في النّائبة، وإطعام المسكين، والرّفق بالمملوك، وبرّ الوالدين...»[5].

---

1 - حفصة بنت عمر بن الخطاب (18ق هـ - 45هـ - 604 - 665م) صحابية جليلة، ولدت في المدينة، وتزوّجها النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة السهميّ سنة اثنتين أو ثلاث للهجرة، روى لها البخاري ومسلم 60 حديثا، توفيت بالمدينة رضي الله عنها.
ارجع لـ: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور، كتاب بلاغات النساء، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1422هـ - 2001م، ص43.

2 - الزرقاء بنت عديّ ابن غالب بن قيس الهمدانية، خطيبة من ذوات الشجاعة من أهل الكوفة، شهدت مع قومها وقعة صفين وخطبت فيها محرّضة الناس على قتال معاوية، وبعد أن تم له الأمر استدعاها وحاورها، فحاورته طويلا، ثم عادت، وقد أعجب بفصاحتها، وبعث إليها بمال، المرجع السابق، ص49.

3 - نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية، زوجة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، خطيبة شاعرة، من ذوات الرأي والشجاعة، عندما هاجم المصريون عثمان في داره، ألقت نفسها عليه، ثم أمسكت السيف بيدها، فخر أصابعها، وقُتل عثمان، ثم خطبت بعد مقتله خطبة مشهورة، وأرسلت إلى معاوية بقميص عثمان وبعض أصابعها المقطوعة لتحرّضه على القتال، خطبها معاوية فرفضت، وحطّمت أسنانها، المرجع السابق، ص81.

4 - عروة بن الورد من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجودها، غطفاني، كان يلقّب بعروة الصّعاليك لجمعه إيّاهم، المرجع السابق، ص102.

5 - المرجع السابق، ص29.

واصلت المرأة مشوارها الأدبي وبرهنت كعادتها تفوّقها، ولقد برزت في العصر الأموي بنساء كثيرات نذكر منهنّ ما يلي:

- أروى بنت الحارث.
- أم البنين[1].
- أم الخير[2].
- حبابة[3].
- عاتكة بنت يزيد بن معاوية[4].
- عزّة بنت جميل[5].
- هند بنت أسماء بن خارجة الفزاوي[6].
- سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب[7].

تعتبر السيدة سكينة أدبية زمانها شاعرة بليغة، وليس صحيحا أن أمراء الشّعر في زمانها إنما أقرّوا لها بالسيطرة الأدبية خضوعا لجبروت جمالها كما ذهب الدكتور زكي مبارك إلى القول، أو لشرف جلالها، بل لموهبتها الأدبية[8].

كانت سكينة أديبة ماهرة وحكيمة وظريفة اللسان، شاعرة عظمية[9].

إنّ مساهمة المرأة الأدبية في العصر الأموي ذات قيمة عظيمة، غير أن المؤرخين والأدباء والنقاد لم يهتموا بإبراز مساهمة المرأة الأدبية في هذا العصر. قال الدكتور مصطفى صادق الرافعي :

1 - كرم البستاني، النساء العربيات، دار صادر، بيروت، 1964م، ص55.
2 - ابن عبد ربه، العقد الفريد، إعداد عصام شعيتو، منشورات مكتبة دار الهلال، ط1، 1986م، ص43.
3 - الزركلي خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، د ت، ج2، ص105.
4 - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص101.
5 - الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، د ت، المجلد9، ص95.
6 - كريم عاصي، نساء العرب، مواقف، جرأة، بلاغة، الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1991م
7 - عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، تراجم سيدات النبوة رضي الله عنهن، الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ت، ص966.
8 - حسين عطوان، الأمويون والخلافة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986م، ص105.
9 - رضا كحالة، أعلام النّساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، ط3، 1977م، ج1، ص85.

«...قلّة الشاعرات عند العرب، وهو أنّ كلّ قبيلة إنما تعتد الشاعر لسانها السياسيّ، وتُعِدُّه للخصومة في تاريخها...

والعجيب أنّ الذين ألّفوا في طبقات الشعراء لم يذكروا الشاعرات معهنّ، لا في الحجاز ولا في الشام ولا في العراق ولا في مصر ولا في المغرب ولا في الأندلس، وضربوا الحجاب عليهن إذ كان شعر النساء تظرُّفا، وإذ لا يكاد يُعرف في التاريخ كلّه من تستحقّ اسم الشاعرة غير بضع نساء معدودات أشهرهنّ من عدّدنا، وإذا عُرفت امرأة واحدة في عصر، غطّى عليها مائة رجل...»[1].

لقد برهنت المرأة على كفاءتها في مجالات متعددة ومنها مجال الشّعر والنثر، وهاهي في العصر العباسي تبرز بشكل أكبر، ومن الملاحظ بروز الإماء في مجالي الشّعر والغناء إلى جانب النّساء الأحرار.

في هذا العصر الذهبي برزت أديبات نحاول ذكر البعض منهنّ:

- زبيدة بنت جعفر[2]، وكانت لؤلؤة ساطعة وهي زوجة الرّشيد وأمّ الأمين، ترعرعت في قصر أبيها فانفجرت موهبتها، وكانت تمتاز بذكاء كبير، وازدادت علما وأدبا في قصر زوجها الرّشيد، ولها مواقف عظيمة، منها يُروى أنه على إثر مقتل ابنها الوحيد الأمين، دخل عليها بعضُ خدمها، وقالوا لها: ((ما يُجْلِسُكِ وقد قُتِل الأمين؟

فقالت: وما أصنع؟

فقالوا: تخرجين طلبا للثأر كما خرجت عائشة تطالب بدم عثمان.

فقالت: ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال.

ثم أمرت بإحضار الثياب السوداء فارتدتها وأخذت تكتب إلى المأمون:« لخير إمام قام من خير عنصر».

لِوارث علم الأولين وفهمهم * * * وللملك المـأمون من أم جعفر

كتبت وعيني مستهل دموعها * * * إليك يا ابن عمي من جفوني ومحجـري

وقد مسّنـي ضرّ وذلّ * * * كـآبة وأرق عيني يا ابن عمي تـفكري[3]

1 - رضا كحالة، أعلام النّساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، ط3، 1977م، ج1، ص85.
2 - بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص24، وارجع لـ: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، 1986م، ج3، ص47 - 49.
3 - جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الجيل بيروت، 1982م، ص25.

لما قرأ المأمون شعرها بكى.

ـ عبيدة الطنبورية: رائدة من الرائدات في صناعة الغناء والأدب، ولدت عام 225هـ في بغداد[1].

ـ عرّيب المأمونية[2]، قال عنها شيخ الفن إسحاق الموصلي: « ما رأيت امرأة أضرب من عرّيب ولا أحسن صنعة، ولا أجمل وجها، ولا أخفّ روحا، ولا أحسن خطابا، ولا أسرع جوابا...»[3].

ـ عنانة بنت عبد الله شاعرة أديبة، تحدّث بفصاحتها وببلاغتها شعراء العصر العباسي[4]. بلغت شهرتها أسماع هارون الرّشيد، ووصلت أخبارها إلى القصر، وبناء لرغبته، عُرضت عليه، فدخلت تتبختر، قال لها: أتحبين أن أشتريك؟ قالت: ولِمَ أحبّ ذلك يا أحسن الناس خَلْقا وخُلُقا؟

فقال لها: أمَّا الخَلْق فظاهر، فما عليك بالخُلُق؟

قالت:« رأيت شرارة قد طاحت على ثوبك من المجمر، لما جاء الخادم بالبخور إليك فسقطت على ثوبك فأحرقته، فو الله ما قطبت وجهك! أعجب هارون الرشيد بسرعة بديهتها وذكائها الحاد، إلا أنه أعرض عن شرائها »[5].

ـ متيّم الهشامية: شاعرة ومغنية من العصر العباسي، أحسنت صناعة الكلمة، وكانت لها مكانة كبيرة[6].

ـ محبوبة: كانت جارية، ثم أهداها مالكها إلى المتوكل العباسي، كانت بارعة في قول الشعر والحكم[7].

ـ أمّ الشريف: شاعرة من شعراء العصر العباسي، ذات رأي وعقل وبلاغة[8].

ـ زهراء الكلابية الجارية[9].

ـ الحجناء بنت نصيب الأصفر الحبشي[10].

1 - عفيفي عبد الله، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1982م، ص66، وارجع لـ: الأصفهاني الأغاني، م22، ص33.
2 - كحالة عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج3، ص67..
3 - فايد عبد الحميد، المرأة وأثرها في الحياة العربية، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1975م، ص31.
4 - الأصفهاني، الأغاني، م21، ص57 - 67.
5 - الأصفهاني، الأغاني، م21، ص70.
6 - الأصفهاني، الأغاني، م7، ص20.
7 - المصدر السابق، م7، ص11، وارجع لـ: كحالة عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، م5، ص20.
8 - كحالة عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، م5، ص18.
9 - الأصفهاني،الأغاني، م5، ص300،298.
10 - الزركلي خير الدين، أعلام النساء ج3، ص193.

ـ عائشة بنت المعتصم[1].

ـ عائشة بنت المهدي[2].

ـ ليلى بنت طريف[3].

لقد برزت المرأة في العصر العباسي بروزا كبيرا سواء كن أحرارا أو إماء، ولقد بيّنت المرأة كعادتها جدارتها وبراعتها الأدبية في مختلف الفنون الأدبية.

في مقابل ذلك برزت المرأة الأدبية الأندلسية ولا مناص من الاعتراف بأن انطلاقة النهضة النسوية في شبه الجزيرة الأندلسية بدأت منذ أن استتب الأمر للأمويين، وازدهرت الحياة الأدبية، فمثّلت الثقافة النسوية منذ عهد الإمارة حسانة التميمية[4].

وعهد الخلافة: مُزْنة كاتبة الخليفة[5] الناصر، ولُبنى كاتبة الحَكَم[6] وشاعرات متعددات أخريات.

من حيث الاتجاهات، هناك اتّجاه محافظ جديد، واتّجاه قديم، فالاتجاه القديم واكب المشرق العربي، والاتجاه الجديد ساير الحياة الأندلسية التي امتازت بالهدوء والسكينة، وامتازت أيضا بالتحرر وشيوع بعض الظواهر الجديدة كشيوع الخمر واللجوء إلى اللهو والمجون[7].

إنّه على العموم قد وجدت المرأة مساحة شاسعة من الحرية في مجالات متعددة منها الأدب، فظهرت أديبات كثيرة، ولعل النقاد يشيدون ببعضهن أمثال: ولاّدة بنت المستكفي[8] وعائشة بنت أحمد القرطبية[9]، وحفصة بنت حمدون الحجازية[10]، والأسماء كثيرة، وهذا إن دل على شيء إنما يدلّ على مواكبة المرأة للتطور الاجتماعي والسياسي والعلمي والأدبي، فسارت إلى جانب الرجل في مشواره العلمي والأدبي.

---

1 - الأصفهاني،الأغاني، ج3، ص195

2 - المصدر السابق،م3،ص205.

3 - الزركلي خير الدين،أعلام النساء، ج5، ص248.

4 - بينهم محمد جميل،المرأة في حضارة العرب،دار النشر للجامعيين،1962م،ص73.

5 - هيكل أحمد،الأدب الأندلسي،طبعة مصر،1962م،ص100-99.

6 - عنان محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، طبعة مصر،1381هـ 1961م،ص431-430.

7 - عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، طبعة بيروت، 1962م، ص72.

8 - ابن بسام علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ، القسم الأول، ج1، ص376، وارجع لـ: ابن بشكوال أبو القاسم، الصلة، طبعة كويدراط مجريط، 1883م، ج2، ص632،

9 - عفيفي عبد الله، المرأة في جاهليتها وإسلامها، ج3، ص147.

10 - انظر ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص630

ظلت المرأة تجاهد في كل المجالات وهذا ما شهده العصر الحديث إلى غاية عصرنا الحالي حيث بلغت ذروتها في مجالي الأدب واللغة.

2 ـ مساهمة المرأة في المجال اللّغوي :

إذا تحدثنا عن الأديبات في العصر الحديث إلى نهاية القرن العشرين سنجد القائمة طويلة جدا تتشعب بتشعّب العالم العربي، وتتنوع بتنوع الأنواع الشعرية من شعر عمودي إلى شعر التفعيلة وشعر منثور، بالإضافة إلى مختلف أنواع النثر العربي.

لقد تجاوزت المرأة كل الظروف من أجل المساهمة في تشييد صرح الأدب العربي ولغاته، متجهة هذه المرة إلى وجهة أخرى وهي مجال اللغة العربية، حيث أبدعت المرأة العربية في هذا المجال وتفننت في اكتشاف أسراره، ولاسيما أن اللغة كائن حي ينمو ويتغذى من مختلف العوامل المحيطة به من أبرز هذه الأسماء والتي تركت بصماتها في هذا العلم الدقيق الصعب الذي يتطلب صبرا كبيرا وجهدا عظيما وحبا صادقا إنها الدكتور عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في كتابها: لُغتنا والحياة. تطرّقت الباحثة إلى موضوع أساسي وهو الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية بين العربية الفصحى والعامية.

عالجت الباحثة موضوع الساعة ودافعت بكل حب وعزيمة عن لغتنا العربية الفصحى التي حاول المستشرقون والشعوبيون ومن سار دربهم النيل منها بطريقة أو بأخرى، حاولت هذه الفئة التشكيك في لغتنا ومحاولة إبدالها باللهجات والحقيقة أن هدفها الأساسي هو محاولة القضاء على هويتنا العربية المسلمة[1].

قالت الدكتورة: « اللغة العربية هي اللسان القومي لشعوب الوطن العربي من وادي الرافدين في قلب الشرق الآسيوي إلى وادي النيل وأقطار المغرب الممتدة على طول الشمال الإفريقي إلى ساحل المحيط الأطلسي»[2].

فاللغة العربية الفصحى بلغت مستوى عالٍ منذ العصر الجاهلي، والمعلقات السبع دليل على ذلك، وما إن ظهر الإسلام حتى ازدادت قوة وعظمة، فنزول القرآن الكريم كان الخطوة الجليلة الحاسمة في الوحدة اللغوية.

قالت الدكتورة عائشة عبد الرحمن: « وجود لغة عليا للفكر والأدب مع لهجات محلية للتعامل ظاهرة

1- الجنيدي خليفة، نحو عربية أفضل، دار هومة، الجزائر، د ت، ص14 وما بعدها.
2 - عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1388هـ - 1969م، ص13.

طبيعية عرفتها العربية من قديمها الجاهلي، وتعرفها الدنيا في سائر اللغات الحية.

لكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى بلهجاتها الشعبية تمزيقا لوحدتنا اللغوية والفكرية والمزاجية، فراجت دعاوى تتهم الفصحى بالعقم والبداوة وتلقي عليها مسؤولية تخلُّفِنا، وتدعو للعامية فتزعم لها القدرة على الوفاء بحاجات وجودنا اللغوي الحديث، وترى فيها المفتاح السحري لتقدمنا العلمي والحضاري! والوسيلة الميسرة لتثقيف الجماهير وتعليم الأميين!»[1].

إن القضية شائكة كما تلاحظون، ولكن الأمر يتطلب منا إرادة قوية واعتقادا عميقا بأن علينا أن نحافظ على لغتنا العربية الفصحى متخذين لذلك مختلف الوسائل منها الدعوة إلى إتقان لغتنا بالإقبال على قواعدها إقبال الرضيع على أمه، لأن الإرادة أساس كل شيء.

من خلال تقديمنا لهذا النموذج أردنا أن نحسّس بعضنا البعض، لندرك نوايا بعض المستشرقين والشعوبيين ومن سار على منوالهم، وعلينا أن نحافظ على لساننا ونصحّح أخطاءنا.

إن لغتنا لغة ثمينة عريقة فهي لغة ديننا الإسلامي، وهذا الشرف العظيم جعلها راقية وباقية.

من خلال ما سبق ذكره نستشف أن المرأة قد قطعت أشواطا كبيرة، وساهمت مساهمة عظيمة لا تقلّ أهمية عن مساهمة أخيها الرجل، لم تكن بنتا وأختا وزوجة وأمّا...فقط بل كانت أديبة عظيمة كما بيّن لنا ذلك التاريخ، وكانت لغويّة بارعة كما نلاحظ في عصرنا الحالي.

إن نسبة مساهمة المرأة في مجالي الأدب واللغة كبيرة وعظيمة حاولنا التمثيل ببعضهن، وهنّ كثيرات عظيمات، نأمل أن تواصل المرأة المسلمة هذا المشوار لخدمة ديننا ولغتنا.

1 - المرجع السابق، ص95.